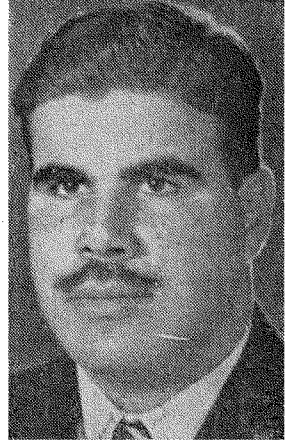


# بين الأدب والفلسفة

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم



العاجزة ابدا ، يكمن العناق الاصيل بين الفلسفة والادب . لقد قال الكون كلمته ، قالها مليئة بالرؤى والاحلام ، عامرة بالافاق اللامتناهية ، مسجاة بالشفوف تشف عن آفاق لا محدودة ترى ولا ترى .

وجاءت كلمة الانسان ، تبحث عن الرؤى ، تصطاد اللؤلؤ ، واللؤلؤ في قاع تنزلق فيه القيعان . جاءت الكلمة لتكون عين الخلق الذي بها يرى ذاته ، غير ان الخلق يؤثر ابدا الا يتعري ، ويروق له ان تتجدد اللعبة الى الابد . ينسدل منه ستار ليرتفع ستار ، ويفمز بجانب من أسراره في مثل طرفة العين ، ثم مايلبث حتى ينام على سر مكين . والصائد الاكبر في هذا الصيد الجاحد المطال ، هو الاديب . انه الانسان ذو الرؤى ، انه اولا وقبل كل شيء ، عالم رأى رؤيا في أفق الكون ، وأدرك برقاً من أثر اللغز العريض ، فطوف لحاقاً بالافق وطقف قبضاً على البرق . لقد لمح في سراب الحياة جرعة وهب لباوغها حياته . انه يهيم ويعزم ، فقد اوشك ان يطأ الارض المقدسة ، وعمت يمسك بالنور وينثر قطراته وسط الديجور .

ولا يعني ان يكون هذا الاديب ناثراً او شاعراً ، خدين القصة او الياف المقالة ، انه في نظرنا الانسان الميتافيزيقي من الطراز الاول ، واذا صح تعريف بعضا لفلاسفة للانسان بانه حيوان ميتافيزيقي ، فالاديب في الدروة من هذا التعريف . انه ابدا غارق في جوهر الوجود وماهية الكون ، سواء ادرك ذلك اولم يدرك . انه ابدا ذلك الساعي الى تعرية الوجود أملا في فهمه ، وطمعا في الامساك بسره ، فالتعبير دوما كشف وتعرية ، وتعبير الاديب ومضة من النور رأى من خلالها طرفا من جسد الحياة ، فجرب ان يكشفه لنفسه ولغيره .

وقد يكفيه من الومضة ان يستلقي في ضيائها ويطعم من نورها سعيدا لا يطمع . من الرؤى بأكثر من الرؤى ، ولا يسائل عما وراء التهاويل ، واذا ذلك نلفيه شاعرا او ناثرا يشفق على المعاني التي تراءت له ان تخرج من اطارها الطبيعي الذي تبنت فيه اطار الضباب المنمش ، والاسرار القريبة البعيدة ، والاحاسيس اللامتعينة . وفي مثل هذه الحال نلغي الادب الايحائي ، الذي يجهد ان ينقل الرؤية نقلا أهينا ، بجلبابها المتشابك المعقد ، وباحاسيسها المبهمة المختلطة ، وبأصواتها المبحوحة الحائرة .

وقد لا يقنع الاديب بالتلميح من دون التصريح ، وقد لا يقوى على الاستلقاء في احضان الرؤيا ، ويأبى الا ان يعمل

قد لا يكون في طوق الصفحات ، ان تلم بجانب من تلك الصلة المترعة التي تقوم بين ماثوي في الوجود من معان هي قوام الفلسفة ، وبين اداة التعبير عن هذه المعاني ، نعني اللفظ .

ولا ادل على غنى هذه الصلة وتنوع الوانها وجوانبها مما نجده من لحمه تكاد لاتنقسم ، بين هاتين الحقيقتين الساجيتين في جوهر الحياة ، الفكرة والكلمة . لقد كانت الكلمة في البدء ، لان الوجود لا يكون وجودا مالم يجلسه التعبير . وكانت الفكرة في البدء لان كل وجود وجود محمل بمعنى ودلالة ، حتى ليكاد يهيم بالتعبير ويوميء بالكلمة . ان الشجرة والقمر والانسان تحمل فلسفة الكون في ثناياها ، ويحل لغز الحياة في طياتها ، غير ان تلك الفلسفة وذلك اللغز يخلفان دوما وأبدا خالفا جديدا ، عندما يغزوهما اللفظ ويستنطقهما الحديث ، ان ما فيهما من اسرار الوجود ، بل ما في الوجود كله من اسرار ، متجدد ابدا ، يتفتق تفتق عيون النور المخضلة بالندى ، عندما يلامسه سحر التعبير ، وينسكب فوقه لؤلؤ اللفظ . ان الطبيعة فيلسوفة على شاكنتها ، وان المجتمع بنظمه وعلائقه . فيلسوف على شاكلته . والحياة في نعمها المشعشع ، بين الطبيعة والانسان ، فيلسوفة الفلاسفة ، غير ان فلسفتها هي الحياة لاتبوح بها دفعة ، ولا تنهط طائفة ميسرة . انها كالافق ، تدنو منة ولا يدنو ، ويطمئع ولا يبلغك . والتعبير في سياق دائم مع هذا الافق ، يلمح فيه الرؤى ويطوي لها الايام والسنين ، والافق دوما وراء الرؤى ، والرؤى ابدا فوق الافق .

هذا اللحاق السرمدي بين سر الحياة وبين التعبير عنه ، هو في نظرنا جوهر الصلة بين الفلسفة والادب ، انها هنالك ، في النبع ، في ما في الوجود ، في الحياة النسي حملت المعنى ، وفي الكلمة التي قالت للمعنى كن ، في الفكرة السادرة تتمطى وتتثنى في اعماق الكون ، وفي اللفظة تهب لترويبها وتمنحها الدفء وتفتق اكمامها في جنح من الليل . انها هنالك دوما وابدا ، في المعنى الخصب الفقير معا ، يحمل الرؤى غزيرة ولا يمرع الا اذا بله القول ، وفي القول القوي العاجز معا ، يضرب بالعصا السحرية فيفجر المعنى ويشقق السر ويهتك الحجب ، غير انه يظل مع ذلك في صبوة اكبر الى سر جديد ، يطول به الطريق كلما اوغل فيه ويمجز عن معنى الكون كلما سرى اليه ، ويرتد صاغرا في كل مرة الى الفكرة الثابوية في الكون بعد ان خلقها في زعمه يستمد منها قدرة جديدة على الخلق . اجل هنالك ، في معنى الكون الصامت الجبار ، وفي كلمة الانسان القادرة ابدا

فيها عقله ، فاذا به يحاول جاهدا فك جنائنها وتشذيب هوامشها ، وتقضي فروعها ، ليخرجها بعد ذلك كله في جلاب مفصل على قد الانسان ، يدركه عقله ، وتعيه تجربته وعند ذلك ناتقي بالادب الذي يفصح عن فلسفة واضحة ، ويتبنى وجهة نظر محددة .

ويأتي في منزلة ثالثة ، رجل لا يقنعه تلميح الادب المغطى بالضباب ، ولا ترضيه محاولة من اراد ان يجعل الرؤيا معقولة ، منقولة ، بل يطمح في ان يدرك الحقائق كاملة دون ان يطفى ظمأه جانب منها ، ويطمع وراء ذلك ان يمسك بسر الكون كله ويقبض على مفتاح الوجود . انه لا يريد رؤيا ولا ينقل رؤيا ، وانما يود ان يمضي وراء عالم الرؤى الى عالم الحقائق ، ووراء الاشباح والظلال السى الاشياء في ذاتها ، ووراء الشعور والاحساس الخالصين الى الوعي المجرد العاقل . وعند ذلك نلغي الفيلسوف ، نلغيه جاهدا في البحث عن جوهر الاشياء ، لا لينقل هذا الجوهر احساسا وشعورا ، ولا لبيعته نفعا منسابا ولحنا دافقا ، ولكن ليحلله ويجزئه ويقبض على ماهيته .

ان محاولته اضخم دون شك من محاولة الاديب ، ولكنها تفقد في الاتساع والالوان ماتريجه في العمق والدقة . انها لا ترقى الى احساس الاديب العريضة الغنية ، التي تضم جانبا كاملا من الكون في رقرق من الشعور . غير انها معتزة مع ذلك بنفسها ، لا ترى الحق في المعاناة وحدها ، وانما تراه في تحليل عناصر هذه المعاناة والنفاد السى جوهرها ، انها تنكر ان يكون الفيلسوف ، كما وصفه بعضهم ، شاعرا اخطأ وهبته ، وترى على العكس ان الشاعر ميتافيزيقي لم يحاول وعي تجربته وكفاه منها انها .

ومع ذلك ، فالمد والجزر قائمان بين هذه النمذاج الثلاثة في فهم الكون ، فالاديب الملمه ، صاحب الوحي الغائم لا بد ان يكون في اخذ وعطاء مع الاديب الذي يحاول ان يحلل تجربته ضمن حدود الزاوية التي يرى منها الاشياء ، ومع الفيلسوف الذي يابى الا ان يرمى الى اصول الامور ومبادئها الاولى . ومثله الاديب المحلل والفيلسوف الباحث . ان شيئا من كل واحد منهم لا بد ان يفهم الآخر ، ولكن بمقدار ، وباختلاف نصيب كل واحد من هذه المقادير الثلاثة تتكون طوائف الادباء والفلاسفة . على ان الذي يجمع بينها جميعها ، هو انها برمتها ، جهد دائم يقوم به التعبير لجلاء معنى الحياة ، ويحاول فيه الانسان الميتافيزيقي ان يدرك سره وسر الكون معه .

\*\*\*

أعجب بعد هذا كله ان نرى الترافد قائما بين الادب والفلسفة ، في شتى العصور ؟ وهل نغوا اذا قلنا ان الادب كله ومعها ما يدعى بالفلسفة « بمعنى المذاهب والنظريات الفلسفية » ، يسقيان من نبع واحد هو نبع الفلسفة البدئية القائمة في ثنايا الكون ، المومنة الى الكلمة ، المتعطشة السى التعبير ، العvisية على كل تعبير مع ذلك ؟ او نجانب الحق ان قلنا ان كلا من الادب والفلسفة ليسا الا محاولتين ، من جانبين مختلفين ، لكشف الستار وهتك الحجاب ؟ ان الادب يدور ليلتقي بفلسفة الحياة ، وان الفلسفة المقعدة تلوب لتدرك فلسفة الحياة .

اما ان يكون وراء هذا كله تآثر مباشر بين المذاهب الادبية والمذاهب الفلسفية ، وتواصل وعطاء بين الادباء والفلاسفة على مر العصور ، فذلك نتيجة بديهية لكل مقررناه ، ذلك ان معنى الحياة في تجدد ونماء ، وهذا التجدد ينعقد بفضل ما يكشفه التعبير من مجالي الوجود واسراره ، سواء

كان هذا التعبير نث ادب او نث فيلسوف . ان كل حادثة جديدة في جبين الحياة تضيف الى مافيه معنى جديدا ، وان كل تعبير جديد عما في الحياة يمنحها هامشا أكبر من المعنى . ومن هنا كان الاديب الذي يخط كلمته في معبد الوجود ، يضح الوجود بمعان يرتشفها ، وكثيرا ما يتلقفها صائد جديد ، اديبا كان او فيلسوفا . ومن هنا ايضا كان الفيلسوف الذي يحج الى عالم الماهيات والجواهر ، يفتق في الكون مشكلات جديدة ويضع فيه محاهيل مستحدثة ، ومحاولات حلول خجلة ، وما يلبث حتى يؤتي ذلك كله بعض ثمراته في صائد جديد من فيلسوف او اديب .

ولكن هل يعني هذا ان الحدود غير قائمة بين الاديب والفيلسوف . بين الادب والفلسفة ؟ الجواب بنعم ولا . اما انها غير قائمة ، فلان التدرج بين الاديب والفيلسوف تدرج متتابع ، لا انقطاع فيه ، تنبني فيه ان ضح التعبير نهايه الادب ببداية الفلسفة . ففي كل ادب خط من اسلوب البحث الفلسفي ، بالمعنى العامي لهذه الكلمة ، وفي كل فيلسوف حظ من اسلوب الاداء الادبي ، وحظوظ الادباء المخلفين من انصبة الفلسفة مثنائية متدرجة ، وحظوظ الفلاسفة المختلفين من انصبة الاسلوب الادبي متباينة متدرجة ، ولا تكاد تقع على الاديب المحض او على الفيلسوف المحض الا في نهايتي السبم . وهما نهايتان خياليتان نظريتان في الواقع . وهكذا تنتقل انتعالا لا ينقطع من الادب السى الفلسفة .

واما ان الحدود قائمة مع ذلك بين الادب والفلسفة فلاننا نستطيع في نهاية الامر ان نستخرج من الواقع الذي يتحد فيه الادب بالفلسفة اتحادا متفاوتا وعلى درجات ، جوهرها مقوما للادب و آخر مقوما للفلسفة ، ومثل هذا الاستخراج استخراج نظري يجرد من الواقع الممتزج المتحد بعض عناصره ومقوماته ويعردها ويجعل منها نمادج .

فما هو النموذج الذي ننهي اليه ان نحن جردنا الادب ؟ وما هو النموذج الذي ننتهي اليه ان نحن جردنا الفلسفة ؟ ان الادب ، اذا اخذناه في فوامه المجرد المصفى ، ونظرنا اليه كادب خالص ، قلنا عنه انه الاندماج في الحياة ، او المشاكاة الوجدانية لها *Einfühlung* بالمعنى الذي يفهمه أمثل « شيلر » من هذه الكلمة . وفي مثل هذا الاندماج يغدو المشاهد والمشاهد شيئا واحدا ، ولا يعدو المرء ان يصبح نفعا من انغام الحياة وقصة ترويهها الحياة . والاديب اذ ذلك تشخيص للحياة نفسها وتجسيد لها . انه ايها ، لا يستطيع ان يفصل عنها ليراه ، ولا تعدو ان تنطاق انغامها فيه . انه ينتقل الى عالم من البهجة ، لم يقصد اليه هو ، ولكنه انفتح له . ولا يصفه ولكنه يشف من خلاله .

ولا حاجة الى ان نقول ان مثل هذه الحال في الادب حال نموذجية ، وتجريد لما تقع عليه في الواقع ، اما مانقع عليه في الواقع فافتراب من هذه الحال بمقادير متفاوتة ، وذن هنا كنا نفع على الشعراء الذين يكادون يمثلون هذا الاندماج مع روح الكون والحياة ، بحيث تتجلى الحياة فيهم وتنطق في تعابيرهم . كما تقع على الادباء الذين تكاد نلغي لديهم هذا الاتحاد الكبير بين الذات والكون . غير ان وراء اولئك وهؤلاء شعراء وكتابا لا يحملون من هذا الاندماج الشعوري الا الذماء القليل .

اما الفلسفة ، اذا اخذناها ايضا في جوهرها المجرد المصفى ، فهي النقد الفكري . انها لا تستطيع الوقوف مكتوفة الايدي لتكون ترجمانا للطبيعة والحياة . بل تريد وراء ذلك

ن تصدى للحياة فتملأها بالتفكير المجرد وتعمل فيها نطق وسائر ادوات البحث لدى الانسان ، لتجاولها وتعرف نهها . وبدهي ههنا ايضا ان مانجده في الواقع ليس هذه صورة المجردة عن الفلسفة ، وانما هي فلسفات تقترب ايلا او كثيرا ن هذه الصورة .

واذا نحن تأملنا بعد هذا في هذين التعريفين لجوهر ل من الادب والفلسفة ، استبان لنا الفراق بينهما فسي لاصل رغم ما بينهما من وشائج في عالم الواقع . وعندك لك ندرك ما يقرره كثير من النقاد حين يمينون التناقض بين لادب والفلسفة ، وحين يصرحون قائلين ان الفلسفة تقتل لشعر ، فالادب في ذروته وفي جوهره المجرد يعني ، على حد تعبير برغسون ، « تنويم القوى العاملة او المقاومة في نخصيتنا وقيادتنا الى حال استسلام نتصل فيها بالفكرة بنشارك في العاطفة » . انه ضرب من الحلم ، ولكنه حلم في قالب الوجود . اما الفلسفة فتعني في جوهرها ايضا يقاط القوى النقدية وشحذها وتسايطها على الاشياء .

أرأيت الى ذلك القصاص الماهر ، حين يصف الانسان ونفسه ومصيره ، انه يتبدى لنا بحارا عائنا على نهر الحياة، نزيه الحياة فيقول ، ويعرف منها فيصف . أرأيت الى مثل دوستويفسكي ، كيف ينهل من النبع مباشرة ، فلا يصف ما يجمعه عقله وما يصل اليه النعد المجزي ، بل يرى ويقبض يقبض على دفقة ن نبع الحياة تنساب بين يديه . ثم أرأيت بعد ذلك الى عالم النفس . او الفيلسوف ، كيف يمضي احدهما في تحليل المشاعر والعواطف والانسانية ، تحليل من جزا وبعد وعجم ، دون ان يتصل بالنبع توالا الى مثل هذا يرجع تفوق الاديب على الفيلسوف في كثير من الاحيان وان تك المقايسة بين التجريبيين خاطئة . ومن خلال هذا نفهم تصريجات كتصريحات أمثال « فرويد » حين يقول عن دوستويفسكي انه الوحيد الذي علمه شيئا عن النفس الانسانية ، ان الاديب ينقل قطعة حية من الحياة ، ينقل المادة الخام بكل ما فيها ، بكل غناها وقرها ، بكل وضوحها وعموضها ، ثم يأتي الفيلسوف او العالم فيحلل القطعة ويدخلها في مخبره ، ويعرضها على حك النقد والتجريح ، فيدرك منها أشياء جديدة لم تتضح للاديب الا همسا ، وتفوته أشياء اخرى أدركها الاديب بنظرته الشاملة ، ومشاركته المباشرة .

ومن خلال هذين التعريفين لجوهر الادب والفلسفة . ندرك ايضا معنى كثير من المناقشات التي تتوز حول بعض الادباء والشعراء . ان المتصيرين لمثل أبي تمام يتصرفون في الواقع الفلسفة التي تداخل جوهر الشعر فتحيله شيئا جديدا ، وان المنتصيرين لمثل البحتري يتصرفون الاقتراب من جوهر الشعر والادب ، ولهذا يقول صاحب البحتري في الموازنة . « تحدثنا عن أبي تمام : « فان شئت دعوناك حكيمسا او سميناك فيلسوفنا ولكن لانسميك شاعرا » . ولهذا ايضا سمعنا تلك القولة الشهيرة : « أبو تمام والمنبي حكيمان والشاعر البحتري » فدبيب الوجود وقشعيرته هما ما ينقله الادب في جوهره ، وحكمة الوجود وقوامه هو ما تحاول الفلسفة ان تنقله ، فلم يعبر البحتري عن مثل هذا حين قال :

كلفتمونا حدود منقطعكم في الشعر يعني عن صدقه وكذبه ولم يكن ذو القروح يلهج (م) بالمنطق ما أصله وما سببه والشعر لمح تكفي اشارته وليس بالهذر طولت خطبه وبعد قد يوهم مانقول اننا نجعل الشعر هو النموذج الاثمل في الادب ، ونحيل جوهر الادب كله الى جوهر

الشعر ، موحدين على هذا النحو بين الشعر والنثر . والذي فصدنا اليه غير ذلك : فجوهر الادب على نحو ما عرفناه ، في صميم كل أثر أدبي شعرا كان او نثرا ، وهو يصدق على الشاعر كما يصدق على الروائي وعلى كاتب المقال ، وليس عندنا فارق ، عندما ننظر الى الجوهر المصفى كما قلنا ، بين الوان الادب المختلفة ، ولسنا نذهب مذاهب كثير من النقاد الذين ارادوا ان يقيموا حدودا فاصلة بين النثر والشعر ، ناظرين الى الشعر احيانا على انه تقيض النثر . فالتجربة الادبية في اعماقها واحدة : انها تعني هذا الاندماج مع نغم الحياة اندماجا يجعلنا نسير في دوكيها وننقل رؤاها . اما ان تقع على شعر يقترب من الحكمة والفلسفة ، وان تقع على نثر مبرد يقترب من الكلام العادي ، فذلك نتيجة طبيعية لما فلناه من ان الادب الصافي جوهر مجرد يقترب منسه الادباء او يتعدون ، ويقترب منه الاديب الواحد او يتعد عنه في اطوار مختلفة من حياته .

سوى ان الصحيح دوما ان معيار الادب الحق هو هذا الاقتراب من جوهر الادب ، يعني الاندماج مع الحياة ، والرؤية الحققة ، رؤية السيل الدافق في عنقوانه واختلاطه . اما ما سوى ذلك فصناعة ودرية او بهلوانية لفظية ، او اشغال حرائق في هشيم اللغة ، على حد تعبير سارتر .

\*\*\*

وبعد ، لم نحاول في هذه الكلمة العابرة ان نبشش التاريخ ، متحدثين عبر آياته عما كان في الآثار الادبية من منازع واتجاهات فلسفية ، وما كان في الآثار الفلسفية من شطحات ولمعات أدبية . فمثل هذا المطاب مركب صعب ، يجرنا الى دراسة تحليلية لا يتسع لها المجال . ولهذا آثرنا وراء ذلك ان نبحث في جوهر الصلة بين الادب والفلسفة ، فوجدناها قائمة وشيخة في النبع المشترك الذي منسه يسقيان ، يعني نبع الحياة ومعانيها ، وما يحاوله كل منهما من جلاء لتك المعاني واكتشاف لذلك النبع . فكلا الادب والفلسفة محاولة للكشف عن معاني الحياة ، بكل ما فيها : سرها وطبيعتها وانسانها ومجتمعها . انهما كليهما تجربة تحاول ان تستنطق الفلسفة التاوية في صميم الوجود .

حتى اذا اردنا ان نرى الوشائج بين الاسلوب السذي راجعا اليه الادب من اجل جلاء تلك الفلسفة والاسلوب الذي تلجا اليه الفلسفة في سبيل الغاية نفسها رأينا الاسلوب الادبي اسلوبا مباشرا يحاول ان يعبر عن تجربة قوامها الاتصال الوجداني الحي بمعاني الحياة ، في حين ان الاسلوب الفلسفي اسلوب غير مباشر ، يحاول ان يصل الى كتسه الحياة عن طريق الامعان في نقدها وتحليلها . فالاديب يعبر عن معاناة شعورية مباشرة ينتقل عن طريقها توالا الى مجال من مجالات الحياة ، فينغمس فيه ويعب من قلبه ، ويفقد واياه ناطقا بلسانه ، يتحدثنا عن فورته في كامل غناها . . اما الفيلسوف فيعبر عن تأمل لتجربة الانسان مع الكون ، قوامه نقد هذه التجربة وتحليلها وتسايط المنطق والعقل عليها . غير ان مثل هذا الوصف للاديب وصف نموذجي ، لا يعبر عما نجده في الواقع ، وانما هو نهاية مثالية يقترب منها الادب . ومثله وصف الفيلسوف ، فهو ايضا وصف نموذجي لا يعبر الا عن نهاية تجريدية . والذي نجده في الواقع بين هذا وذاك ، صور مختلطة تقترب من صورة الاديب المثالية او تتعد عنها ، وتندو من صورة الفيلسوف النموذجية او تنأى ، ويتحد فيها في

## بين الادب والفلسفة

- تمة المنشور على الصفحة ٤ -

معظم الحالات جوهر الاديب بجوهر الفيلسوف اتحادا  
يختم من انسان الى انسان . ومن هنا كنا نرى فلسفة  
تعتمد على تجربته الادبية الى حد بعيد ، كما يرى ادبا  
سمازجه السجريه العنسيه بمقدار ضخم .

وهكذا نعود من جديد لنرى الوشائج قوية بين الادب  
والفلسفه في اسلوب البحث الذي يلجأ اليه بكل منهما ، كما  
وجدناها فويه بينهما في الغاية التي يرجوانها ، نعمتي جلاء  
الفلسفه التاويه في موب الحياة .

وعن طريق مثل هذا المنهج في البحث ، نجتنب  
كثيرا من الصعوبات التي تقوم في وجه الباحث عن هوية  
كل من الادب والفلسفه . ذلك اننا وجدنا الهويين ممتزجين  
في الواقع امتزاجا يختلف دون شك من شخص الى اخر .

ولا سبيل عندنا بالتالي الى وضع حدود فاصله بين الطرفين  
الا في مجال البحث عن الجوهر النهائي المقوم لكل منها .

اما في واقع الحياة ، فنحن امام اناس نوى فيهم جوهر  
الاسلوب الادبي الى جانب جوهر الاسلوب الفلسفي ، سوى  
ان نسبه الواحد الى الآخر هي التي تختلف من انسان الى  
اسنان ، وهي التي تجنح ببعض الكتاب شطر الادب وتجنح  
ببعضهم الآخر شطر الفلسفه . وليس هناك تضاد بين  
هذين الاسلوبين في التعبير عن فلسفه الحياة ، اسلوب  
الاديب واسلوب الفيلسوف ، الا عندما ننظر اليهما في  
نهايتهما المجردة كما قلنا .

فالاديب من حيث الجوهر ، يبحث في معاني الحياة  
وهي في حال السلوك والعمل . انه ينقلها بأمانة وبراعة ،  
حين ينتقل اليها ويتعاطف معها . والفيلسوف ، من حيث  
الجوهر أيضا يبحث في معاني الحياة محلا عناصرها  
مستخرجا مبادئها . ولزام على الاول ، في واقع الامر ، ان  
يضع في وصفه الحياة وصفا حيا جانبا كبيرا من التحليل  
وحظا من استخراج المبادئ . وحق على الثاني ، في الواقع  
ايضا ، ان يتوسل الى تحليل العناصر واستخراج المبادئ  
بالاتصال بالحياة في جريانها وانطلاقها الحي . وهكذا  
يداخل اسلوب البحث الادبي حظ من اسلوب البحث  
الفلسفي كما يداخل اسلوب البحث الفلسفي حظ من  
اسلوب البحث الادبي ويتوسل أحدهما بالآخر .

\*\*\*

ولا ادل على هذه العلاقة العميقة بين الادب والفلسفه  
من قيام اتجاهات في الشعر والنثر تحاول ان تصمد عن  
اساس ميتافيزيقي . ففي الشعر مثلا تقع على ذلك الضرب  
من القريض الذي يسمونه باسم الشعر الخالص ، او الشعر  
الميتافيزيقي ، والذي يحاول ان يكون صدى بعض المعاني  
الميتافيزيقية الاساسية التي يراها الشاعر خلال تجربته  
في الكون . هكذا نجد مثل وردزورت وشلي يتأثران بالتجربة  
الافلاطونية فيصفان لنا الطبيعة في سكونها وثباتها . وهكذا  
نجد شاعرا ميتافيزيقيا من الطراز الاول ، هو « هولدرن »  
يحاول ان يتعمق مشكلة الزمن في شعره . ومثله يفعل  
الشاعر الرومانتيقي الالماني الشهير ، نوالس Novalis  
( صاحب الشعر السحري ) عندهما ينقل الينا مشاعره نحو  
الزمن ، الزمن لجديد القديم أبدا في نظره ، وعندما ينقلنا

الى لحظة هي الخلود في الوقت نفسه . ونظير هذا المعنى  
الميتافيزيقي بجده شاعرا في شعر « بيت Blake  
حيث يحاول الشاعر ان يطعننا على حضور الابدية في كل  
لحظة من لحظات حياتنا . افلا نلقي ايضا عند الشاعرين  
الفرنسيين « مالارمي Mallarmé » و « فالري Valéry

ضربا من التأمل في الوجود والعدم يذكرنا في كثير من  
جنباته بما نفع عليه في كتاب افلاطون الشهير « بارمنيدس  
Parménides » ويطول بنا الحديث لو اردنا استعراض

العديد من الشعراء الذين قام شعرهم على معنى فلسفي  
رايد فحدونا عن وحده الكون ، كما فعل امثال « نيرفال  
Nerval » و « بودلير » ، او عن الشبيه والضد او عن

الحركة والسكون كما فعل « وردزورت » و « شيلي »  
ايضا . . ويطول بنا الموقف اكثر لو اردنا ان ندرس تلك  
الصلة الطريفة التي تقوم بين شاعر مثل « هولدرن » وبين  
فيلسوف مثل « هيغل Hegel » وجل ما نريد ان

نصل اليه من وراء هذا كله ان من الخطا ان نردد الشنشنه  
القائلة ان الشاعر ميتافيزيقي لم يفلح ، او ان الميتافيزيقي  
شاعر لم يفلح .

والحق في هذا كله ان المعاني الفلسفية حظ مشترك  
في كثير من الاحيان بين الفيلسوف والشاعر ، وكثيرا ما  
يوغل الشاعر في اسلوب يقترب من اسلوب الفيلسوف ،  
ومع ذلك يظل الفارق قائما دوما وأبدا . فالشكل الذي  
يجسد به الشاعر فكرته مبان أبدا لما ندعوه بالذهب  
الفلسفي . ويظل من صحيح الصحيح ان نقول مع الشاعر  
على لسان الميسافيزيقي :

ربة الشعر ، ربة القلب الكبير

لتنطقك اتاشيتك

انني اصغي اليك ، وأنا الذي أتكلم

فالفارق قائم رغم كل شيء بين هذين الحظين من نقل  
معاني الحياة . واذا كان جوهر الشعر دوما جوهر  
ميتافيزيقيا ، وكان جوهر الميتافيزيقي في كثير من الاحيان  
جوهر شعريا ، فمن الحق بعد هذا ان الشعر ينقل معانيه  
حيه مختلطة بعيدة عن التحليل العقلي ، بينما لا تقوم  
الميتافيزيقي الا على اساس البحث العقلي المحلل ، بل على  
اساس البحث العلمي ، كما يريد ميتافيزيقي اليوم .

اما اذا مضينا الى ميدان النثر ، فاننا واجدون أيضا  
مثل هذا اللقاء ومثل هذا الفراق بين الادب والفلسفه .

والشاهد عليهما أيضا ما نجده في القصة الحديثة وفي  
الادب المسرحي الحديث من منازع فلسفية صريحة تتصدى  
ل طرح مشكلات الكون والوجود . وكثير من المؤلفات  
القصصية والمسرحية الحديثة يسودها فكرة فلسفية  
موجهة رائدة . هكذا نجد فكرتي « الانا » و « الحرية »

تسودان روايات « ستندال Stendhal » ونجد الاشارة  
الى سر التاريخ وتفسيره على أنه انبثاق للمعنى والفكرة  
ضمن الحوادث الصارخة هي الفكرة الرائدة عند قصاص  
مثل بالزاك Balzac ونجد القول باشمال الحاضر

على الماضي وبحضور الزمن الماضي الضائع هو الموجه  
لافاصيص « بروس ت Proust » هذا اذا لم نؤغل

لناتقي بالرواية المعاصرة حيث نجد امثال « سارتر »  
« وغابرييل مارسيل » و « كافكا » و « مورغان » و « سيمون دي  
بوفوار » وكثير غيرهم ممن تسود  
التقليدية ، حين تأتي ان تكون مهمتها تفسير العالم واكتشاف  
ادبهم فكرة فلسفية رائدة . بل ان ظهور الفلسفه الوجودية  
الى جانب الادب الوجودي في عصرنا ، ليكاد يوبيء بقمران

أيضا « منحدران مفترقان من ارتفاع واحد » . ومع ذلك نعود فنقول ان هذا التمييز يصدق على الفلاسفة فسي جوهرها الخالص وعلى الأدب في جوهره الخالص في حين أن بين هذا وذاك مراتب متداخلة وصورا تبتعد أو تقترب من هذين الجوهرين ، كما سبق أن بينا .

\*\*\*

وتستبين لنا هذه العلاقة بين الأدب والفلسفة من زاوية أخرى ، إذا نحن نظرنا في العوامل المكونة للتجربة الأدبية . ولن نعاود ههنا مثل هذا البحث المسكور في بواعث الأدب ومكونات الأديب . ولن ننصر لمذهب دون آخر في تفسير الإبداع الأدبي . والذي نريد أن نقرره من وراء هذا أن العوامل التي تخلق الأدب وتبدع التجربة الأدبية ، سواء وضعنا الإلهام على رأسها ، أو وضعنا تجربة الحياة وظروف العصر في أسس مقوماتها ، أو رجعنا فوق هذا وذاك الى العوامل اللاشعورية والى العقد النفسية خاصة ، تنتمي دوما وأبدا الى أرومة واحدة قوامها الاتحاد مع تيار الحياة والانغماس في ما تنضح به من فلسفة . وسواء ذهبنا مع الفلاسفة في القول بان التجربة الأدبية اتحاد بين الطبيعه والذات بين الواقع والمطلق ، أو مضينا مع علماء النفس في رد الإبداع الأدبي والفني جملة الى الرغبات المكبوتة والدوافع اللاشعورية ، أو وافقنا أصحاب المنزع الاجتماعي فيما للحوادث الاجتماعية وظروف البيئة من دور كبير في هذا المجال ، يظل بين هذه العوامل جميعها اطار مشترك يضمها ، هو اطار التعاطف مع ما تشف عنه الطبيعة والحياة من معان وما توسوس به من أفكار .

والحق ان التجربة الانفعالية اسمى أنواع التجارب الانسانية . وهي في أعماقها تشمل ما قبلها وتعلو عليه . انها تشمل ما هو اجتماعي وما هو نفسي لتعلو فوقهما وتلفهما . والتركيب الكلي ، يعني النظرة الشاملة للكون والاشياء ، لا يكون الا في مستوى الانفعال البديهي . فالانفعال البديهي هو الذي ينقلنا الى مستوى المشاركة الروحية الحققة في آفاق الحياة العليا والفامضة . انه هو الذي ينقلنا الى المشاركة في عالم القيم العليا ، قيم الحب والخير والحق والجمال . ومن هنا كانت التجربة الأدبية ، باعتبارها تجربة انفعالية من الطراز الاول ، وباعتبار قوامها المشاركة الوجدانية الانفعالية كما ذكرنا ، تجربة مترعة بكل مراتب الوجود الدنيا السابقة عليها ، من مراتب نفسية أو اجتماعية أو طبيعية أو غيرها . وهكذا نلقي من جديد التجربة الأدبية مرتبة عليا في فهم الكون والاشياء ، وشكلا أمثل في تمثل فلسفة الحياة .

ان التجربة الأدبية ، وسائر ألوان التجربة البديعية ، تجربة فردية مثلى ، وهي بسبب ذلك في الذروة بسين تجارب الوجود . انها ترتبط بتجربة الوجود التي يقوم بها كل فرد ، وهي في أعماقها ما يكونه كل فرد لنفسه من نظرة كاملة الى الوجود . وبدهي ان اسمى أشكال الوجود الروحي هو هذا الوجود الذي يرقى فيه الفرد الى تكوين نظرتة المتفردة الخاصة . غير أن هذا لا يعني ، كما قد يظن أن بلوغ التجربة الفردية الفذة يكون باستبعاد التجربة الاجتماعية ومناقضتها . والامر على عكس هذا تماما . فالتجربة الاجتماعية شرط لازم لكل تجربة فردية حرة ، وهي وسيلة الارتقاء الى مثل هذه التجربة . غير أن نمو التجربة الانسانية عندما يربو ويستمر ، لا بد أن يقود الى ما هو فوق المجتمع وان لم يكن نقيضه ، نعني الإدراك الذاتي الخاص والحن المتفرد والرئين الشخصي . ومثل هذا

مبتكر بين الفلسفة والأدب ، بعد أن تغير كلا مفهومهما في عرف هذا المذهب . فالفلسفة الوجودية تباين الفلسفات « شروط امكانه » ، وحين تجعل مهمتها صياغة تجربة حية مع العالم ، واقامة تماس مباشر معه سابق لكل فكرة عنه . وبذلك تقترب الشقة بين الأدب والفلسفة اقترابا كبيرا ، عندما يصبح غرض كليهما استنطاق تجربة الانسان مع العالم . ففي مثل هذه الفلسفة الوجودية ، يتم الانطلاق من فكرة أساسية وهي أن العالم مخلوق بحيث لا يمكن التعبير عنه الا عن طريق « أقاصيص » . وما دام الأمر كذلك فالقصة والمسرح لا بد أن يكونا مشبعين بالميتافيزياء ، ولو لم يستخدموا اي لفظ فلسفي .

غير أن هذا الاقتراب الكبير بين جوهر الفلسفة وجوهر القصة لا ينفي في نظرنا أن تظل الفروق قائمة بينهما في الاسلوب ، كما رأيناها قائمة بين الفلسفة والشعر . ويظل من الصحيح دوما أن نقرر أن الأدب ، ولاسيما القصة والمسرح ، هو التجسيد المشخص الحي للمعاني الفلسفية السائوية في الوجود بينما الفلسفة تحليل ودراسة عقلية لمثل هذه التجربة المشخصة الحية . ونستطيع أن نقول بتعبير آخر ، أن الأدب سابق على الفلسفة ، بمعنى أن ما يعرضه من المعاني مادة حية ينفخها من الحياة نفسها ، في تعفدها وتشابكها ، ثم يأتي الفكر المجرد ، الفكر الفلسفي فيضعها موضع التحليل والبحث . ان ما يعرضه لنا الأدب مثلا من ضروب الصراع القائمة في الحياة اشياء موجودة قبل أن نعبر عنها وقبل أن نحللها منطقيا ، على حد تعبير « غابرييل مارسيل » . فما يعرضه هو الحياة ، هو سر الحياة . ان الفلسفة والأدب ، على حد قول « مارسيل »

## مجموعات « الأدب »

لدى الإدارة عدد محدود من مجموعات السنوات التسع الأولى من الأدب تباع كما يلي :

ل.ل			
١٥٠	(مجلدة)	١٩٥٣	السنة الأولى
٤٠	(بدون تجلید)	١٩٥٤	السنة الثانية
»	»	١٩٥٥	السنة الثالثة
»	»	١٩٥٦	السنة الرابعة
»	»	١٩٥٧	السنة الخامسة
»	»	١٩٥٨	السنة السادسة
»	»	١٩٥٩	السنة السابعة
»	»	١٩٦٠	السنة الثامنة
»	»	١٩٦١	السنة التاسعة

اللعن الذاتي هو في أعماقه التجربة الانفعالية التي هي أساس الاحساس البدعي وأساس الخلق الأدبي .  
ومن خلال هذا الأفق نفهم معنى الرابطة التي تربط الأديب بمجتمعه . فالأديب ابن المجتمع ، منه اغتدى وبه عرف تراث الإنسان بل عرف ذاته ومعنى وجوده . غير أنه يعرف أن يرقى فوق المجتمع ليكون تجربته الشخصية وإظاره الفريد . ومن هنا كان الأديب في آن واحد ملتزما حرا ، وكان الالتزام هو الحرية ، وكانت الحرية تعني الالتزام في نهاية الأمر . فالأديب الحق لا بد أن يكون ابن مجتمعه ولا بد أن يتكون خلاله وان يمتص روحه . ولكنه لا يظل حبس هذا المجتمع وحبس قيمه ، بل يملك من الأصالة والنظرة الشخصية ما يجعله يرقى فوق المجتمع مصححا مقوما للأشياء . أنه أبدا ربيب المجتمع وسيد . والالتزام في الأدب يأخذ معناه من خلال هذا الأفق وحده . أنه يعني اهتمام الأديب للتجربة الاجتماعية امتصاصا يجعله قادرا على التحرر منها وتوجيهها . فهو في المجتمع ومنه لا محالة . غير أنه لا يكون أديبا حقا إذا لم يملك من النظرة الشخصية ما يمكنه من الاطلاع على المجتمع اطلالة نقد وتمحيص وتوجيه .

ولهذا وجدنا الالتزام يحمل معنيين متناقضين ، هما في نظرنا سبب الخلاف الوهمي حول هذه المسألة . فالالتزام كثيرا ما يكون بتبني قيم وأهداف سائدة في المجتمع غالبية عليه . غير أنه كثيرا ما يكون أيضا بالخروج على قيم وأهداف اجتماعية غدت بالية ، وأصبحت نظرة الأديب البدئية العليا تنكرها وتنكر لها . أو لم يشعر كاتب كبير مثل « بوشكين » أن الالتزام الحق يدعو ، في عصر نقولا الأول ، إلى المنادة بتحرر الفنان من الدعوة إلى أهداف المجتمع ؟ ذلك أن مثل هذه الدعوة في ذلك العهد كانت تعني تأييد الظلم والفساد . ولهذا أوى مثل بوشكين إلى محراب الفن للفن ، ووجد فيه قيمة إنسانية أعلى . ومثل هذا المذهب ذهب إليه « غوتيه » والرومانتيكيون الفرنسيون من بعده ، إذ كان وضع الأدب في خدمة المجتمع إذ ذاك لا يعني سوى خدمة البورجوازية والتنكر للجماهير الشعبية . ومن هنا حق لمثل الكاتب الروسي « بليخانوف » أن يقرر أن نزعة « الفن للفن » تولد وتشتد حينما يقوم بين الفنان وبين الوسط الاجتماعي خلاف مستعص .

ومعنى هذا أن الالتزام لا يعني دوما أن يكون الأديب في خدمة المجتمع ، وإنما يعني أن يكون في خدمة المبادئ المثالية التي يؤمن بها الأديب حين علا على المجتمع وكون تجربته الشخصية وقيمه الروحية الذاتية ، ولا يزول اللبس في مسألة الالتزام ولا يزول كثير من الصراع حولها إلا إذا أدركنا هذه الحقيقة ، وهي أن الالتزام قد يكون التزاما بأهداف المجتمع ومثله وقد يكون خروجا على هذه الأهداف وتلك المثل . والمعيار الحق للالتزام هو تجاوب الأديب مع نظراته الفردية الحرة ، التي تتضمن في ثناياها حتما تجربة مجتمعه ولا يمكن أن تكون بدونها . فمن طريق تمثل تجربة المجتمع وثقافته وتراثه رقى الأديب إلى تجربته الشخصية الغدة . غير أن هذه التجربة الشخصية وضعت تجربة المجتمع ضمن إطار جديد ، هو إطار القيم الإنسانية المثلى التي بلغها الأديب بجهد ومعاياته . والالتزام هذا الإطار الجديد هو الالتزام الحق لدى الأديب .  
إن نابليون حين كان يدعو إلى جعل الأدب في خدمة المجتمع ، وحين كان يحمل على نظرية « الفن للفن » وبعدها

أسوأ مخترعات الأيدولوجيين المعنيين ، لم يكن يصدر في ذلك عن نزعة التزام كالتالي يريدها الأديب ، بل كان يدعو إلى ما يناقض الالتزام الحق تماما .

وبتعبير آخر ، أن الدعوة إلى فن يخدم المجتمع دعوة يمكن أن تساير الالتزام الحق ويمكن أن تكون ضده ، وهي نزعة كثيرا ما تتلاءم مع الروح المحافظة أكثر من تلاؤمها مع الروح الثورية . والتعبير الصحيح في هذا المجال هو أن نادي بالالتزام الأديب لتجربته الشخصية ، تلك التجربة التي تتضمن القيم المثلى التي رقى إليها والتي ينظر من خلالها إلى حياة مجتمعه .

وهكذا ندرك أعماق الإدراك كيف تلتقي التجربة الفردية الحرة بالتجربة الاجتماعية الخصب لدى الأديب الحق . ونفهم معنى قولنا أن التجربة الأدبية تجربة فردية من الطراز الأول ، دون أن يحمل هذا القول معنى انكار المجتمع أو التنكر له .

وأخيرا ، إذا كان الأدب هذه التجربة الانفعالية المثلى التي تنقل الفرد إلى أفق جمالي يجعله يتعاطف مع أسمى القيم الروحية في الحياة ويدرك أجمل معانيها ، فهل نظل في حاجة إلى تقرير ما هو بدهي وإلى أن نعود فنقول أن الأدب تعبير سام عن تيار الحياة واتصال بمعانيها وامتياح من فسقتها المستترة ؟

إن الأديب الحق ربيب الحياة الفيلسوفة . أنه جزء من تيارها ، قيس من نورها ، مفصح عن سرها الذي لا يتضب .

عبدالله عبد الدائم

دمشق

## شعر

### من منشورات دار الآداب

قراءة الموجة	نازك الملائكة
وجدتها	فدوى طوقان
وحدي مع الأيام	فدوى طوقان
اعطنا حبا	فدوى طوقان
عينك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي

دار الآداب

بيروت - ص.ب. ٤١٢٣